في الأدب المقارن

الأثر الأجنبي

في الأدبين العربي والانجليزي

للأستاذ فخري أبو السعود

تتفق اللغتان العربيـة والانجليزية في خروجهما من جزيرة منعزلة، وانتشارهما في امبراطوريتين مترامیتين، وفي تأثر أدبيهما بهذا التوسع العظيم وبالاختلاط بالأمم الأخرى وآدابها، ولـكنهما يختلفان في كيفية هذا التأثر ونواحيه ومداه، لاختلاف الظروف التي اكتنفت قيام الامبراطوريتين

فقد صحبت قيام الدولة الاسلامية ظروف أربعة كان لها أبعد الأثر في تاريخها السياسي وفي تاريخ أدبها: فهي أولاً قد قامت على أساس دعوة دينية تنتظم الأمم، وتسوي بين الناس، وتعد المؤمنين بها من مختلف الأجناس إخواناً. وهي ثانياً جاءت مبكرة غاية التبكير، ولم تنقض على تأسيس الدولة العربية الأصليـة في الوطن الأصلي — جزيرة العرب — غير سنوات قلائل. وثالثاً تم تأسيسها بسرعة نادرة المثال في التاريخ نتيجة نجاح العرب الحربي الباهر، وأخيراً انبسط سلطانها على أمم تفوق العرب الفاتحين غنى وحضارة وثقافة

هذه العوامل الأربعة — بما انطوت عليه من خير وشر — كانت حاسمة في مستقبل الدولة العربية. فمساواة الاسلام بين الناس — مساواته بين العرب الفاتحين وبين الأعاجم المغلوبين — هيأت لهؤلاء أن ينافسوا العرب في الحكم والرياسة وكافة أسباب الحياة. وقيام الامبراطورية مبكرة قبل أن تتوطد الدولة في وطنها الأصلي من جهـة جعل قبضة الوطن الأول على ممتلـكاته واهية سرعان ما انحلت، وانفصلت جزيرة العرب أو كادت عن بقية الامبراطورية وعادت إلى ركودها الأول، وخرجت منها عاصمة الحـكم؛ ومن جهة أخرى جعل الحـكم الفردي المطلق هو النظام الوحيد القادر على إدارة تلك الاصقاع المترامية، فأهملت الشورى التي حض عليها الاسلام، والتي كانت مرعية قبل أن تمتد أطراف الدولة وتخرج العاصمة من الجزيرة. وسرعة تأسيس الامبراطورية غمر الفاتحين بطوفان من الثروة نشر الترف والفساد نشراً يزري بكل ما عرفته رومة عقب فتوحها شرقاً وغرباً. وامتداد سلطان العرب على أمم تفوقهم حضارة وثقافة جعل من الحتم استعانتهم بأبناء تلك الأمم في الادارات والصناعات التي لم يكن لهم بها عهد من قبل

وقد استفاد العرب من سـياسة المساواة والتسامح والعدل التي جروا عليها في إدارة امبراطوريتهم أن انتشر دينهم ولغتهم فمحقا الأديان واللغات السابقة في معظم أملاكهم وحلاّ محلها. ولـكن دولتهم جاءت — من جراء أربعة العوامل آنفة الذكر — شعوبية لا عربية صميمة، مستبدة الحـكومة، مترفة المجتمع، متنافرة العناصر، منطوية على عناصر كثيرة من عناصر الانحلال

* * *

كانت الظروف التي لابست قيام الامبراطورية الانجليزية وانتشار اللغة والأدب الانجليزيين عكس هذه تماماً: فقد توطدت الدولة الانجليزية في وطنها الأول توطداً تاماً مدى قرون قبل أن تتجـه إلى التوسع الخارجي؛ واقتبس الانجليز حضارة جيرانهم وثقافتهم حتى صاروا في مقدمة الأمم. فلمـا راحوا ينشرون سلطانهم لم يُخضعوا أمماً تفوقهم مدنية كما كانت حالة العرب مع الفرس، أو حالة الرومان مع الاغريق؛ وتـكامل بناء امبراطوريتهم تدريجاً مع سير الزمن وتطور الحوادث، فلم يُبتـلَوا بسيل مفاجئ من الثروة والترف يزعزع دعائم مجتمعهم ويوهن متانة أخلاقهم، ولم يكونوا بسبيل دعوة دينية أو إنسانية تسوّي بين القاهر والمقهور، بل كانوا وما يزالون يعتبرون رسالتهم إخضاع الآخرين وحكمهم لا مساواتهم بأنفسهم؛ ومن ثم ظلوا متعالين عن الأمم المغلوبة مستأثرين بالـكلمة العليا دونها متحاجزين عن أفرادها في المجتمع لا يخالطونهم ولا يزاوجونهم إلا في النّدرة

لذلك كله قامت دولتهم إنجليزية صميمـة، واتسق للنظام الدمقراطي أن يزداد تمكناً مع ازدياد اتساع الدولة، بعكس ما كان في حالتي العرب والرومان؛ وظل للوطن الأول في الامبراطورية الانجليزية المقام الأول، وبقيت به حاضرة الحـكم التي تجمع سلطتها الأطراف وتؤثر في غيرها من أجزاء الامبراطورية أضعاف ما تتأثر بالغير

* * *

تلك الظروف التي صاحبت امتداد الامبراطوريتين واختلاط الأمتين بالعناصر الأجنبية كان لها جميعاً أعظم أثر في تاريخ أدبهما كما كان لها أثر في تاريخها السياسي ، وهو أثر مزدوج يشمل معالجة أبناء الأمم المفتوحة لأدب الأمة الغالبـــة ، كما يشمل اطلاع أبناء هذه الأخيرة على آداب الأمم المقهورة ؛ وهنا أيضاً يتباين الأدبان العربي والانجليزي

فالعرب قد سمحوا للعلم من أية أمة أن يباريهم في معاناة أدبهم كما باراهم في شؤون الحرب والحكم ، فما لبث الأجانب الداخلون في العربية أن بذوا العرب في هذا الباب بحكم قديم ثقافتهم وتليد حضارتهم كما بذوهم في غيره ، وما لبثوا أن صار منهم أئمة الأدب العربي ، واستأثروا أو كادوا بكتابة الدواوين ووزارة الخلفاء وصلات الأمراء

ولم يكن من الخير في شيء للأدب العربي أن يتسلط عليه أولئك الغرباء الواغلون ، وكانت لهم فيه آثار سيئة : فهم مهما تكن ثقافتهم ومهما بلغ انكبابهم على دراسة العربيـــة غرباء بطبعهم عن الأدب واللغـــة والذوق الأدبي العربي وتقاليده ومراميه ، فلم يكتبوا أو ينظموا على السجية بل كانوا دائماً مقلدين متعلمين : قلدوا متقدمي العرب تظاهراً بانداجهم في العربية ، فكانوا عنصر تقليد ومحافظة ، لا عنصر ابتداع وتجديد في الأدب ؛ وتعملوا في اللفظ تظاهراً بتفقههم في اللغة ، فأدخلوا الصنعة والبهرج والزيغ في الأدب بدل أن يوسموا أغراضه ويسموا بمعانيه

فَسَرَيَانُ العنصر الأجنبي الأعجمي في الأدب هو مرجع تغلب الصنعة على الطبع في كثير منه ، ومرجع تغلب نزعة التقليد على نزعة التجديد في كل عصوره . وكفى بهذين داعياً الى جمود الأدب ثم تدهوره . ولا شك أنه لو بقي الأدب وقفاً على العرب الصميمين ، وظلت الكلمة العليا للعرب في الدولة ، وظلت هذه الدولة محدودة المساحة لا تتجاوز كثيراً حدودها الطبيعية ، لجاء الأدب أقرب إلى الطبع وأحفل بمظاهر الفن وأوسع مدى وأسمى أفقاً وأطول عمراً ، ولكان له تاريخ غير الذي كان

أما الأدب الانجليز — وسنن الانجليز التي جروا عليها في توسعهم واتصالهم بالأمم الأخرى هي ما قدمنا — فكان أقطابه بعد قيام الأمبراطورية — كما كانوا قبلها — انجليزاً أقحاحاً يعبرون عن الطبع الانجليزي والبيئة الانجليزية ، ويفقهون روح لغتهم وتراث أدبهم ، ويصدرون عن تقاليدهم المجيدة ؛ فلا غرو جاء الأدب الانجليزي طبيعياً فنياً صادق التعبير سامي المقصد بعيداً عن التكلف ثواراً على الجمود

فهذا فرق ما بين الأمتين في الاتصال بالأجانب ؛ وهناك فرق بينهما في الاتصال بآداب أولئك الأجانب لا يقل خطورة عن سابقه . فالعرب الذين قبلوا الأعاجم أنداداً في دينهم ولغتهم وأدبهم ترفعوا عن آداب تلك الأمم ، ولم يروا بأنفسهم — وهم معادن البلاغة وفحول الخطابة ، ولغتهم لغة الدين والدولة والقرآن — حاجة إلى الاطلاع على آداب غيرهم ، فنظروا إلى الأدبين الفارسي واليوناني وغيرهما شزراً ، وخسروا بذلك كثيراً وضاق أفق أدبهم كثيراً لاعتزاله غيره

على حين أن الانجليز الذين ضنوا بقوميتهم وترفعوا عن سواهم من الأمم في الحكم وفي المجتمع لم يترفعوا عن آداب تلك الأمم الجديرة بالدرس ، فانتفعوا قبل توسعهم وبعده بالآداب الايطالية والفرنسية والألمانية ، بله آداب الأمم البائدة من إغريق ورومان ؛ أوسعوا كل ذلك درساً واطلاعاً ونقلاً ، فأخصبوا أدبهم أي إخصاب ، ووسعوا أطراف لغتهم ذاتها . وعلى هذا النحو استفاد الانجليز بخير ما في الآداب الأجنبية دون أن يفقدوا شخصيتهم في غمار تلك الآداب ، أو يسمحوا للأثر الأجنبي أن يفسد ملكتهم الأصلية وطبعهم الخاص

فالظروف التي أحاطت باتصال العرب بغيرهم ، وتأثر أدبهم بالآداب الأجنبية ، والسنن التي استنها العرب في معاملة الأجانب ، لم تكن خير ما يساعد الأدب العربي على النمو الصحيح والازدهار الطويل ؛ واللغة العربيـــة المحكمة البناء ، البارعة التعبير ، الغنية الجوانب ، التي أينعت أحسن إيناع تحت سماء البادية لم يتح لها في أرض الحضارة من يوجهون بليغ أساليبها أحسن التوجيه إلى دراسة النفس الانسانيـــة ووصف المجتمع البشري ، وكان رقيها العلمي في ظل الامبراطورية الاسلاميـــة أعظم بكثير من رقيها الأدبي

فتحي أبو السعود